التطبيق (08)

المدةُ: ساعة
الفئةُ المُستهدفةُ: طلبة السنة الثانية ليسانس ل م د

نظرية التعبير

اهتمت نظرية التعبير بالأديب الشاعر أكثر من الأسلوب أو الشكل، فالشخصية أهم من الحبكة أو الأحداث، ورأت بأنّ الأديب يُعيدُ خلق الحياة من خلال رؤيته الخاصة، وقد اهتم أصحاب هذه النظرية بتأكيد الحقيقة القائلة بأن الإنسان خيّر بطبيعته، كما اهتموا ببيان قيمة الطبيعة إلى حدّ التقديس، فكلوريدج يعتبرها أعظم الشعراء جميعا، ووليم ووردزورث يرى أنها ببساطتها الأقدر على الوحي من أي شيء آخر تختلط فيه المؤثرات وتتشابك.

1-1-أعلام نظرية التعبير:

من الممكن أن نقف عند علمين اثنين من أعلام "نظرية التعبير"، هما: "وليم ووردزورث" و"صمويل تيلور كلوردج"، اللذين أثّرا تأثيرًا كبيرًا في مسار الأدب والنقد الأوروبي والعالمي.

أ-وليم ووردزورث ت 1850م:

كتب "ووردرورث" ديوان "غنائيات" بالاشتراك مع صديقة "كلوريدج"، وظهر هذا الديوان المشهور عام 1798م، وقد ظهرت الطبعة الثانية عام 1800م باسم ووردزوث، مع مقدمة بقلمه تُبينُ الآراء النقدية التي كُتبت على أساسها القصائد.

يعدُّ الديوان بداية لمسار جديد للشعر، كما تعدّ المقدمة التي كتبها ووردزورث من النصوص النقدية المهمة في تاريخ النقد الأدبي، وكما كانت آراء أفلاطون الباعث كتابة أرسطو كتابه الشهير "الشعر"، فإنّ مقدمة "ووردزورث" كانت الباعث وراء "كلوريدج" لكتابة كتابه المهم "سيرة أدبية"، الذي يعتبر من أهم النصوص النقدية في التراث العالمي.

وتنبع قيمة "ووردزورث" في الشعر من فكرتين: شعر الطبيعة، الشعر البسيط، لذلك كان يوصف بأنه شاعر الإنسان، غير أنّ ما يهمنا هنا هو أفكاره التي أوردها في مقدمة ديوانه "غنائيات".

يقول في مقدمته "أنّ كل شعر جيد هو فيض تلقائي لمشاعر قوية"، وتتضح أهمية الشعور في مثل هذا القول، غير أنّ عبارة "فيض تلقائي" قد تثير الكثير من التساؤلات حول الإرادة والوعي، لكننا يمكن أن نفهمها باعتبارها رد فعل على نظرية المحاكاة؛ أي ربما تكون محاولة لتحطيم مفهوم الصنعة في الأدب أو مفهوم التأليف عن عمد، وعلى أية حال فإنّ "ووردزورث" يُضيف بأنّ الشعور يُضفي أهمية على العمل والموقف، لا أنّ العمل والموقف يضفيان أهمية على الشعور، ذلك أنّ موجات المد والجزر في العقل تحرّكها العواطف.

وبالتالي نظرية التعبير ظهرت كرد فعل على نظرية المحاكاة، وذلك في محاولة منها لتحطيم مفهوم الصنعة في الأدب، أو مفهوم التأليف عن عمد، وعلى أية حال فإنّ "ووردزورث" يُضيف بأنّ الشعور يُضفي أهميةً على العمل والموقف.

العواطف هي التي تعطي الموضوع المعالج معناه وقيمته، كما أنّ الموضوعات يجب أن تستمد من الحياة العامة والناس الريفيين والشعبيين، فالأحداث التي تحدث بالأماكن العامة لها طابع سحري، غير أنّ على الشاعر أن يلون هذه الأحداث بخياله.

الشعر عنده معالجة بارعة للمشاعر الإنسانية، بهدف تحقيق صحّة الإنسان العقلية والجسدية وسعادته، فالشعر يهدف إلى تنشيط روح الإنسان وجعلها أكثر ديناميكية، من خلال تسجيل الحقيقة بشكل مشوق وممتع، ومن خلال خلقه استثارة مصحوبة بمتعة تُرجحها.

فقيمة الشعر تنبع من قدرته على منح السعادة، هذه السعادة أو المتعة الحالية لا تحط من الشعر كفن، إنها معرفة جمال الكون.

وهناك سبب واحد يجعل الشاعر قادرا على التعبير عن الحقائق العامة والفعالة؛ لأنه إنسان سعيد بعواطفه وإرادته الخاصة؛ ولأنه أكثر من غيره يبتهج مع روح الحياة الموجودة داخله، وهو يمكن أن يخلق هذه العواطف، إذا لم تكن موجودة فيه أصلا، يقول حول هذه المعاني في مقدمة ديوانه: "وما الشاعر؟ إنهُ إنسان كسائر

الناس، ولكن الله حباهُ بنعمة الحماس الفائر والحس المرهف والحنان العذب، إنه يفوق الناس علما بطبيعة الإنسان ويدرك من جوهر الحياة ما لا يدركه غيره، إنه إنسان فرحٌ بما عنده من إرادة، طرب لما له من عواطف مغتبطة بما يحس من روح الحياة، لذا هو يتأمل هذه العواطف وتلك الإرادة، وهي تتجلى في غيره من المخلوقات والكائنات، ولقد اعتاد أن يخلقها حيث لا يجدها، يضاف إلى ملكاته تلك أنه قد كوّن في نفسه العادة؛ لأنه يتأثر بما هو ليس موجودا، كما يتأثر بالموجود، وأن يجمع في نفسه عواطف بعيدة كل البعد عن هذه التي تحدثها الأحداث العادية، ولكن في الوقت نفسه تشبه هذه العواطف التي تثيرها الحياة العادية أكثر مما تشبه الانفعالات، التي تتولد عند الناس العاديين بفعل العقل وحده، لذلك ولأنه قد مرّن كثيرا، تراه قد استعد استعدادا ممتازا لأن يُعبّر عما يحس وعما يُفكّر، ولأن يُعبّر بوجهٍ خاصٍ عن هذه الأفكار وتلك العواطف، التي يختارها هو أو يختارها له تركيب عقله، والتي تنفجر فيه دون أي مُؤثرٍ خارجي" كتاب فن الأدب: المحاكاة، ص 128، 129.

وعلى الرغم من أنّ "ووردزورث" يتفقُ مع صديقه "كوليردج" في انعدام المؤثر العام الخارجي، أو تفاهة شأنه في الفن، فإنهما -كما تقول الدكتورة سهير القلماوي- مختلفان كل الاختلاف في عمق التفكير واتساع آفاقه، مما جعل "ووردزورث" شاعرًا ناقدًا مُلمًا بشيء من موضوعات التفكير في عصره، و"كلوريدج" صاحب نظرية.

ب-صمويل تيلور كلوريدج ت 1834م:

يعتبره كثيرون ألمع اسم في تاريخ النقد كله بعد "أرسطو"، حتى القرن التاسع عشر، فقد كان "كلوريدج" شاعرًا وفيلسوفا وناقدًا كبيرًا وصاحب نظرية الخيال.

رفض "كلوريدج" فلسفة "كانط" في الخيال التي كانت تتمثل في أن الخيال هو مجرد وسيلة لجمع الجزئيات الحسية المتفرقة؛ إذ كان يرى أنّ الخيال "ليس تذكُرُ شيء أحسسناه من قبل، وقد تجرد من قيود الزمان والمكان، ومن كُلّ علاقاتهِ وارتباطاته، لا، ولا هو جمع بين أجزاء أُحسّت من قبل لتأليفِ شيء لم يُحس، ولكنه في الواقع خلق جديد، إنه خلقُ صورة لم توجد وما كان لها أن توجد بفضل الحواس لوحدها أو العقل وحدهُ، وإنما هو صورة تأتي ساعة تستحيل الحواس والوجدان

والقعل كُلاً واحدًا في الفنان، بل كلاً واحدا في الطبيعةِ، هذا الخيال وحدهُ هو الذي يُميّزُ بين الشعراء والعباقرة والشعراءِ المُتشاعرين" فن الأدب: المحاكاة، ص126 وما بعدها.

-الشرح:

-أهمية الخيال عند كلوريدج:

يُعْتَبَرُ الخَيَالُ ضَرُورِيًا لِلأَدَبِ عُمُومًا ولِلشِعْرِ خُصُوصًا، فَبِدُونِهِ تَفْقِدُ الأَشْيَاءُ المُعَبَّرُ عَنْهَا طَعْمَهَا وجَاذِبِيَتَهَا، كَمَا يُحَرِكُ فِي المُتَلَقِي حُبَّهَا والمَيْلَ إِلَيهَا والاِفْتِتَانَ بِهَا، فَالخَيَالُ "هُو المَلَكَةُ التِي يَسْتَطِيعُ بِهَا الأُدَبَاءُ أَنْ يُؤَلِفُوا صُوَرَهُمْ مِنْ إِحْسَاسَاتٍ سَابِقَةٍ لاَ حَصْرَ لَهَا، تَخْتَزِنُهَا عُقُولُهُمْ، وَتَظَلُّ كَامِنَةً فِي مُخَيِلَتِهِمْ حَتَى يَحِينَ الوَقْتُ، فَيُؤَلِفُوا مِنْهَا الصُورَةَ التِي يُرِيدُونَهَا"، والخَيَالُ هُو الأَدَاةُ اللاَزِمَةُ لإِثَارَةِ العَوَاطِفِ وتَأجِيجِهَا، وَرَسْمِ المَعَانِي وتَصْوِيرِهَا، وهُو سَبِيلُ الشَاعِرِ إلى نَفْسِ المُتَلَقِي، حِينَ يَجْعَلُهَا تَطْرَبُ وتَعْجَبُ مِنْ مَشَاهِدِ الصُوَرِ فِي القَصِيدَةِ، ويُعْتَبَرُ بِذَلِكَ عُنْصُرًا أَسَاسِيًا فِي التَصْوِيرِ، ومَصْدَرَ كُلّ صُورَةٍ شِعْرِيَةٍ؛ إِذْ تُعْتَبَرُ الصُورُ "مَعْرِضًا لإِظْهَارِ مَدَى قُدْرَةِ الشَاعِرِ عَلى اِسْتِخْدَامِ مَلَكَتِهِ التَخْيِيلِيَّةِ"، فَالصُورَةُ قَبْلَ أَنْ تَنْشَأَ وَتَتَشَكَّلَ فِي المَلفُوظِ اللُغَوِي فَهِي تَتَشَكَّلُ فِي الخَيَالِ، اِنْطِلاَقًا مِنْ مُعْطَيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، يَكُونُ العَالَمُ المَحْسُوسُ فِي طَلِيعَتِهَا.

تَكْمُنُ أَهَمِيَّةُ الخَيَالِ فِي صِنَاعَةِ الصُورَةِ فِي أَنَّ الشَاعِرَ يَسْتَطِيعُ مِنْ خِلاَلِهِ نَقْلَ الأَشْيَاءِ مِنْ حَالَةِ المُعَانَاةِ إلى حَالَةِ التَجْسِيدِ، فَتَغْدُو ضَرْبًا مِنْ مُشَاهَدَةِ المَشَاعِرِ بَعْدَ تَخَيُّلِهَا، ومِنْ ثَمَّ كَانَتْ الصُورَةُ وَثِيقَةُ الاِرْتِبَاطِ بِالخَيَالِ، بِحَيثُ أَنَّ "أَيَّ مَفْهُومٍ لِلصُورَةِ الشِعْرِيَةِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ إِلاَّ عَلى أَسَاسِ مَكِينٍ مِنْ مَفْهُومٍ مُتَمَاسِكٍ لِلخَيَالِ الشِعْرِي"، وإِنَّ دَوْرَ الخَيَالِ لاَ يَكْمُنُ فَقَطْ فِي اِسْتِعَادَةِ صُوَرِ الأَشْيَاءِ بَعْدَ غِيَابِهَا عَنِ الحَاسَّةِ، عَلى اِعْتِبَارِ أَنَّ الشِعْرَ حَدْسٌ لِلأَشْيَاءِ والصُورِ، وإِنَّمَا هُو يُسْهِمُ فِي خَلْقِ صُورَةٍ تَتَمَيَّزُ بِتَفَرُّدِهَا وخُصُوصِيَتِهَا، مِمَّا يَجْعَلُهَا تُثِيرُ لَدَى المُتَلَقِي تَدَاعِيَات، لَمْ يَكُنْ مُبْدِعُ الصُورَةِ قَدْ اِهْتَدَى إِلَيهَا أَصْلاً، خَاصَةً إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الصُورَةُ تَقُومُ عَلَى الإِيحَاءِ كَمَا فِي الشِعْرِ الرَمْزِي، وهَذَا مَا جَعَلَ بَعْضَ الدَارِسِينَ يَرَى أَنَّ "قِيمَةَ الخَيَالِ لَيسَتْ فِي كَوْنِهِ جَدِيدًا أَو قَدِيمًا، وإِنَّمَا قِيمَتُهُ فِي أَنَّهُ يُصَوِرُ الحَيَاةَ مِنْ حَولِنَا، فِي تَنَاسُقٍ وتَرَابُطٍ واِتِّحَادٍ، بِحَيثُ يَأْخُذُ المُبْدِعُ المُتَلَقِينَ إلى سَمَاوَاتٍ أَرْحَبٍ، وإلى عَوَالِمِ أَجْمَلٍ".

وبالتالي فـ"كلوريدج" يُفسّرُ الشعر والأدب من زاوية المبدع الفنان من خلال عملِ الخيال وقوته الخلاّقة المُوحدّة المُجدّدة، لذلك نراه يُفرّقُ بين القصيدة والشعر، إنّ القصيدة هي الترتيب المُعيّن للكلمات، ومُتعتها مُستقاة من تنظيم ترتيب اللغة، أما الشعرُ أو الشكل الحقيقي العضوي فهو من إنجازات الخيال، الذي يُنشّطُ روح الإنسانِ ويجعلها فعّالة وديناميكية.

مصادر ومراجع:

1- شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

2- عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط1، سبتمبر 1997.